الخطّ العربيّ، نشأته وتطوّره
– دراسة تاريخيّة تحليليّة –

أ.قدوري بومدين [1]

تاريخ الاستلام: 29- 04- 2019 تاريخ القبول: 22- 07- 2019

الملخّص: نروم من خلال دراستنا هذه إلى تسليط الضّوء على نشأة الخطّ العربي وذلك من خلال دراسة جذوره وتاريخه وأين وجد ومن أين جاء إلى العرب، ثم دراسة خصائصه وحيثياته وكيف تطور قبل وبعد نزول القران الكريم الذّي دلت بعض آياته على أنّ العرب قبله كانوا أميّين، وأنّه هو الكتاب الموثق الأوّل في تاريخهم.

الكلمات المفتاحيّة: الخطّ العربي؛ النّشأة؛ التطور؛ دراسة تاريخيّة.

Abstract: From this study, we aim to shed light on the origins of the Arabic calligraphy by studying its roots and history, where it was found, where it came from, and how it evolved before and after the arrival of the Holy Quran, which showed that the Arabs before it were illiterate, Is the first documented book in their history.

المقدّمة: عرف العرب الخطّ منذ غابر العصور وقبل الأبجديّة التي عُثر عليها في أوغاريت (رأس شمرا) بآلاف السّنين، وقد عُثر في الجزيرة العربيّة وفي أماكن مختلفة على كتابات عربيّة مدونة بخط المسند، لذا اعتبره الباحثون والمؤرخون القلم العربي الأول والأصيل وهو خط أهل اليمن ويسمونه خط حمير.

[1] جامعة الدّكتور مولاي الطاهر – اسعيدة، الجزائر dr.kaddouri74@gmail.com

وقد بقي قوم من أهل اليمن يكتبون بالمسند بعد الإسلام ويقرؤون نصوصه فلما جاء الإسلام كان أهل مكّة يكتبون بقلم خاص بهم، تختلف حروفه عن حروف المسند، ودعوه القلم العربي أو الخطّ العربي حينا، والكتاب العربي أو الكتابة العربيّة حينا آخر تمييزا له عن المُسند [1].

ومهما يكن فإنّ تعدّد الخطّوط العربيّة بعد خط المسند من الثمودي الذّي نسب إلى قبيلة "ثمود"، والآرامي الذّي نسب إلى قبيلة "إرم"، واللّحياني نسبة إلى قبيلة "لحيان"، والصّفائي نسبة إلى أرض " الصّفاة" [2]، فإنّ الأمر اللاّفت للانتباه هنا والسّؤال الذّي يطرح نفسه متى نشأ الخطّ العربي عموما؟، وما هو المكان الذّي نشأ فيه؟، وكيف تطور؟.

أولا: نشأة الخطّ العربي: تشير معظم الرّوايات العربيّة إلى انتقال الكتابة من الحيرة إلى مكة عن طريق دومة الجندل، فقد رُوي أنّ الإمام **عامر الشّعبي** (ت: 103 هـ) قال: "سألنا المهاجرين من أين تعلّمتم الكتاب؟ فقالوا: من أهل الحيرة، وقيل لأهل الحيرة من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا من أهل الأنبار" [3]، وروي أيضا أنّ الإمام **الأصمعي** قال: " ذكروا أنّ قريشا سُئلوا من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا من أهل الحيرة وقيل لأهل الحيرة: من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا من أهل الأنبار" [4]، فعلى هاتين الرّوايتين فإنّ أصل الكتابة العربيّة من أهل الأنبار على وجه موثوق به، حتى وإنْ وقع الخلاف بين الدّارسين حول من أين أخذ أهل الأنبار الكتابة والذّي قرّرناه في المطلب الثاني من هذه الدّراسة.

وقد أسند الإمام **البلاذري** نقل الكتابة من الحيرة إلى مكة وباقي الحجاز، إلى أفراد بأعينهم حيث قال: "كان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجنّ الكندي ثم السّكوني- صاحب دومة الجندل– يأتي الحيرة فيقيم بها حينا وكان نصرانيا فتعلم بشر الخطّ العربي من أهل الحيرة ثم أتى مكة في بعض شأنه، فرآه سفيان بن أميّة بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن

كلاب يكتب، فسألاه أنْ يعلّمهما الخطّ، فعلمهما الهجاء، ثم أراهما الخطّ فكتبا، ثم إنّ بشرا وسفيان وأبا قيس أتَواْ الطائف في تجارة، فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلّم الخطّ منهم، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مُضر، فتعلم الخطّ منه عمرو بن زرارة بن عدس، فسمّي عمرو الكاتب، ثم أتى بشر الشّام فتعلّم منه ناس هناك [5].

وفي روايّة أخرى أوردها الإمام **السّيوطي في كتابه المزهر** [6] أنّ بشرا خرج إلى مكة وتزوج الصّهباء بنت حرب بن أميّة أخت أبي سفيان، فعلّم جماعة من أهل مكة الكتابة.

وعلى هاتين الرّوايتين يتبن لنا بأنّ منشأ الخطّ لم يكن بأرض الحجاز، وإنّما دخلها من اليمن أو العراق أو من أرض الشّام أوغيرها [7]، وعلى هذا سنخرج من أرض الحجاز ونفتّش عن منشأ الخطّ العربي في مواطن أخرى ولتكن أرض الأنبار، وذلك لأنّ أغلب المصادر العربيّة والرّوايات التاريخيّة تدل على أنّ مكان ظهور الكتابة العربيّة هو الأنبار، فهل هذا صحيح ؟

لقد دلّت بعض الرّوايات المعزُوَّة إلى الإمام الأصمعي [8] على أنّ منشأ الخطّ العربي هو بلاد الأنبار، غير أنّ الدّارسين المحدثين لم يسلموا بهذا الأمر، وذلك لما أثبتته بعض النقوش العربيّة التي اكُتشفت في شمال الجزيرة والتي دلّت على أنّ منشأ الكتابة العربيّة هو بلاد الأنباط، وفي ذلك يقول الدّكتور **غانم قدوري الحمد** "سبق أنْ أشرنا إلى أنّ المصادر العربيّة تذهب إلى أنّ مكان اختراع الكتابة العربيّة هو الأنبار إلا أنّ النقوش التي اكتُشفت في شمال الجزيرة تشير إلى أنّ الكتابة تولدت ونمت في شمال الجزيرة في بلاد الأنباط، ثم اتجهت – على ما يبدو– تحت تأثير الظروف السّياسيّة إلى الشّرق، ووجدت في الحواضر العربيّة في العراق المناخ الملائم لأن تتطور وتتأصل وتنتشر في الحيرة وغيرها من القرى العربيّة" [9] .

وعلى هذا فإنّ انتشار الكتابة العربيّة في بلاد الحيرة أمر مسلّم به، غير أنّ قلّة المصادر العربيّة التي تثبت هذا الكلام تجعله يبقى مجرد رأي يفتقر إلى التحقيق

العلمي، وهذا ما تبناه الأستاذ "صلاح الدّين المنجد" [10] الذّي أنكر أنْ يكون منشأ الخطّ العربي هو بلاد الحيرة من أرض العراق، معلّلا ذلك بأنّ أرض الحيرة وبلاد الغساسنة كانت قبل الإسلام مثقّفة بالثقافة السّريانيّة، لأنّها كانت تدين بالنصرانيّة، وكان الخطّ السّرياني هو الخطّ المعمول به عندهم، وعليه يستحيل أنْ يتطور الخطّ النبطي العربي الوثني في أرض الحيرة النصرانيّة، وبالتالي شكّك في الرّوايّة التي تدل على انتقال الخطّ العربي إلى الحجاز من بلاد الحيرة.

ومهما يكن فإنّ كلام الأستاذ "صلاح الدّين المنجد" هو عبارة عن وجهة نظره وخلاصة دراسته للخط العربي، غير أنّه يمكننا القول هنا بأنّ تبنّي بلاد الحيرة للديانة النصرانيّة لا يعني عدم كتابتها بالخطّ العربي، كما أنّ اختلاف الدّيانة بين عرب الأنباط الوثنيّين، وعرب الحيرة النصارى لا يعني عدم اتفاقهم في خط واحد، وعليه فإنّ بلاد الحيرة والأنبار هي الطريق الذّي دخل به الخطّ العربي إلى بلاد الحجاز وذلك لارتباط المنطقتين بقوافل تجاريّة وحدود جغرافيّة [11].

ومن هنا نقول بأنّ منشأ الكتابة العربيّة هو بلاد الأنبار والحيرة اللّتين ساهمتا بشكل كبير في انتقال الخطّ إلى بلاد الحجاز ومنها إلى البلاد العربيّة، وإنْ كان هذا الأمر هو محض اجتهاد علمي، وقول ظنّي لقلة الأدلّة الواردة إلينا، والنقوش العربيّة المكتشفة في وقتنا الحالي.

وأمّا الحديث عن زمن نشأة الخطّ العربي فإنّه من الصّعب تحديده، وذلك لأنّ الرّوايات العربيّة المتاحة دراستها لم تصرّح بزمن نشأة الخطّ العربي بالتحديد، وإنْ كان أغلبها يشير إلى أشخاص بعينهم، كالرّوايّة التي تسند نقل الخطّ العربي إلى ثلاثة نفرٍ من قبيلة طيء [12]، ونقلَه عنهم إلى مكة "بشر بن عبد الملك" كما رأينا ذلك من خلال حديثنا عن أصل الخطّ العربي.

وعلى هذا الأساس يمكننا إرجاع زمن نشأة الخطّ العربي بجيلين قبل الإسلام تقريبا، غير أنّي وقفت على كلام نفيس للدكتور "غانم قدوري الحمد" يحدّد فيه زمن نشأة الخطّ العربي وذلك من خلال مناقشتة لآراء العلماء في ذلك حيث

يقول: "... وقد دلّت النقوش العربيّة الجاهليّة أنّ الكتابة العربيّة بدأت تتميز بخصائص معينة منذ مطلع القرن الرّابع الميلادي (تاريخ نقش النّمارة: 328م) [13].

كما نجد كتابة عربيّة متميّزة الخصائص في نقش زبد (512م) [14]، وعلى ذلك يُرجع كثير من الباحثين إلى أنّ الخطّ العربي نشأ ونما بين زمن نقش النّمارة، وزمن نقش زبد.

وتاريخ نقش زبد يدلنا إلى الفترة التي يُحتَمل أنّ يكون الرّجال الطائيون الثلاثة مرامر وصاحباه، قد عاشوا فيها أو قريبا من ذلك، وتزعم المصادر العربيّة أنّهم هم الذّين وضعوا الكتابة العربيّة، ويبدو أنّه قد كان لهم دور كبير في تطور الكتابة العربيّة والتوسع في استعمالها في العراق، حتى ذهبت الرّوايّة إلى أنّهم هم الذّين وضعوا الكتابة، ويقدم لنا نقش حران (568م) [15] كتابة عربيّة كاملة الخصائص [16].

وقد آثرت هنا إيراد هذه النقوش العربيّة الثلاثة (النمارة –أم الجمال– حران) مع فك رموزها، وذلك لتوثيق هذا الكلام.

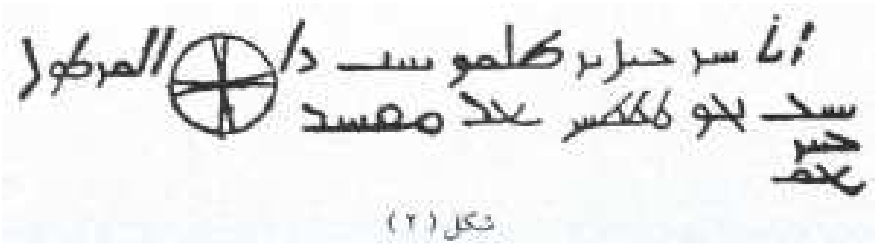

شكل (٢)

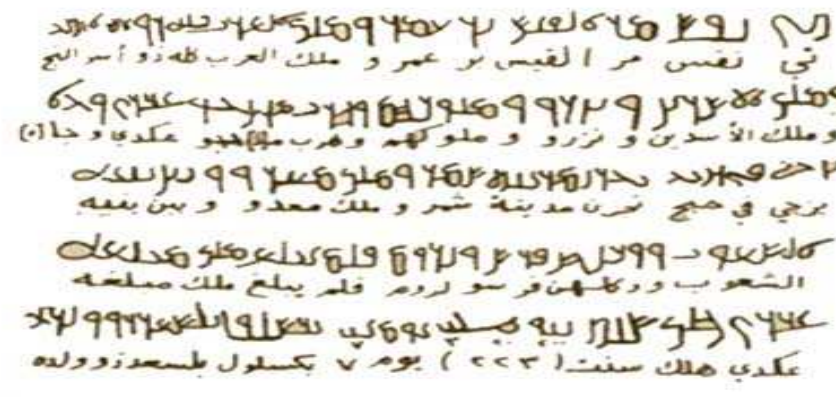

الشكل (2)
نقش النمارة

نقش أم الجمال
أ ـ نقش أم الجمال في سوريا (شكل: 1)، ويرجع إلى نهايّة القرن الثالث الميلادي وقراءته كالتالي:
1. دنه نفشو فهرو ــ (هذا قبر فهر)
2. بن شلي ربو جديمت ــ (ابن شلي مربي جذيمة)
3. ملك تنوخ ــ (ملك تنوخ.)

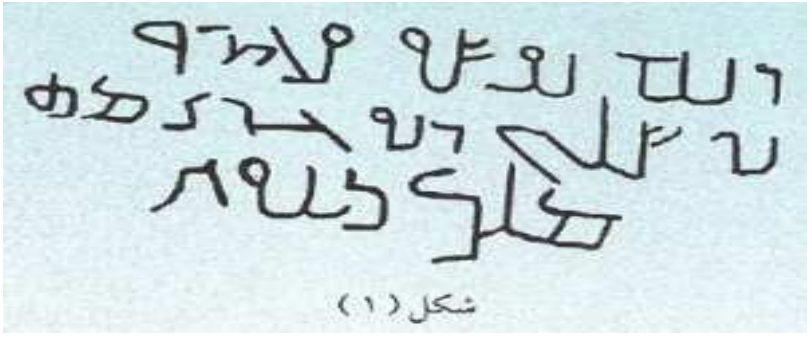

شكل (١)

قراءة المؤلف لحروف نقش النمارة النبطية

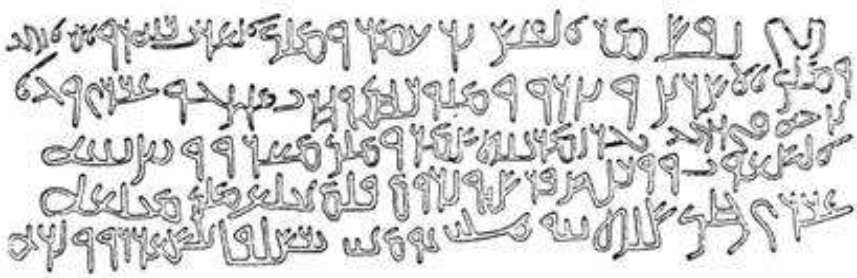

ترجمة المؤلف لنقش النمارة بالحروف العربية

تي نفس مرء لقيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسد التج
وملك الاسدين ونزرو وملوكهمو هرب مذحجو عكدي وجء
يزجه في رتج نجرن مدينت شمرو ملك معدو وبين بنيه
الشعوب ووكلهن فرسنولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدي هلك سنت 223 يوم 7 بكسلول يلسعد ذو ولده

ترجمة المؤلف لنقش النمارة بالعربية الحديثة

تَيا نَفسُ امرؤ القيس بن عَمْرو، مَلِكُ العَربِ كُلّها، ذو أسَدَ التاج،
ومَلِكُ الأسَدِيين ونَزارٍ ومُلوكَهُمو. هَرَّبَ مِذْحِج عكْدي، وجاءَ
يزْجُّها في رُتجِ نَجران، مدينةُ شِمْر، مَلِكُ مَعَدٍ، وبَيّنَ بَنيها
الشعوب، ووكّلَهُنَّ فُرْسانو الروم، فَلَمْ يبلغْ مَلِكٌ مَبلَغَه.
عكْدي هَلَكَ سَنَةَ 223 يَومْ 7 بكسلولْ ، يالِسَعْدِ ذو وَلَدَه.

قراءة المؤلف لحروف نقش النمارة النبطية

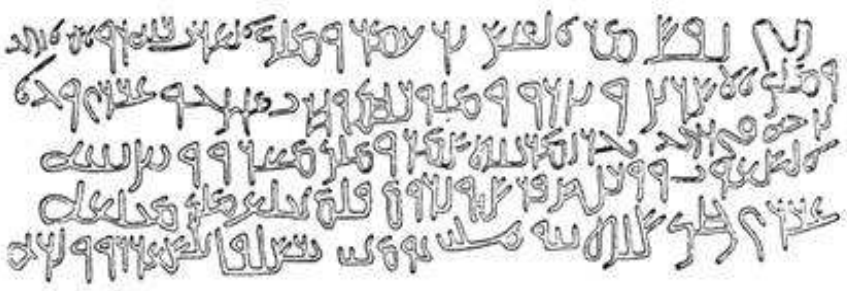

ترجمة المؤلف لنقش النمارة بالحروف العربية

تي نفس مرء لقيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسد التج
وملك الاسدين ونزرو وملوكهمو هرب مذحجو عكدي وجء
يزجه في رتج نجرن مدينت شمرو ملك معدو وبين بنيه
الشعوب ووكلهن فرسنولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدي هلك سنت 223 يوم 7 بكسلول يلسعد ذو ولده

ترجمة المؤلف لنقش النمارة بالعربية الحديثة

تَيا نَفسُ امرؤ القيس بن عَمْرو، مَلِكُ العَرَبِ كُلّها، ذو أَسَدَ التاج،
ومَلِكُ الأَسَدِيين ونَزارٍ ومُلوكَهُمو. هَرَّبَ مِذْحِج عكْدي، وجاءَ
يزْجُّها في رُتْجِ نَجران، مدينةُ شِمْر، مَلِكُ مَعَدٍ، وبَيَّنَ بَنيها
الشعوب، ووكَّلَهُنَّ فُرْسانو الروم، فلَمْ يبلغْ مَلِكٌ مَبلَغَه.
عكْدي هَلَكَ سَنَةَ 223 يَوْمَ 7 بكسلولْ ، يالِسَعْدِ ذو وَلَدَه.

ثانيا– تطور الخطّ والكتابة العربيّة: لعلّ من الصّعب الحديث عن تطور الكتابة العربيّة، وذلك لمشكلة الحصول على أدلة ملموسة لتحديد أصل الكتابة العربيّة اللهم ما ورد إلينا من نقوش عربيّة – الله أعلم بصحتها – وعلى هذا الأساس فإنّ الحديث عن تطور الكتابة العربيّة هو محض اجتهاد من الباحثين القدامى والمحدثين نظرا لغياب الدّليل العلمي الملموس.

من الأمور المسلّمة بها عند الدّارسين المعاصرين أنّ بدايّة الكتابة عموما بدأت بنظام العدّ والحساب، حيث أنّ الإنسان كان يدل على العدد عن طريق السّرد المتسلسل، بمعنى أنّ الدّلالة على العدد ثمانيّة مثلا تكون برسم رموز تمثل الشّيء المعدود، ثم تطوّر حتى أصبح يعتمد على رموز ذات معنى لا رموزا متسلسلة، وهذا ما يوضّح العلاقة بين الرّمز ووحدات اللغة [17].

وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأنّ الكتابة بدأت تصويريّة، حيث أنّ الإنسان كان يصوِّر الشّيء أو الحادث الذّي يريد تدوينه دون وجود علاقة صوتيّة بين المكتوب والمراد منه [18]، ثم تطوّرت الكتابة لتنتقل من الطور التصويري إلى التمثيل التصويري الرّمزي، فأصبحت الرّموز لا تستخدم فقط للدلالة على الأمور الحسيّة القابلة للتصوير، بل تعدّتها للدّلالة على الأمور المعنويّة التي لا يمكن تصويرها، ثم تطورت الكتابة من استخدام التصوير الرّمزي إلى استخدام التصوير الرّمزي الصّوتي فأصبحت الكتابة رمزيّة مقطعيّة تدل فيها الصّورة على صوت مقطع يمثل وحدة لغويّة ذات معنى، فمثلا في الكتابة الهيروغليفيّة [19] كانت صورة "البومة" تدل على الطير المعروف بالبومة ثمّ أصبحت تدل فقط على المقطع الأول من اسم " البوم" وهو بلغتهم صوت "م" بغض النظر عن موقع ورودها [20].

وعلى هذا الأساس يمكننا القول هنا بأنّ الكتابة العربيّة قد تطورت كما في الكتابات الأخرى، غير أنّ الجانب التاريخي يبيّن لنا بأنّ الكتابة العربيّة قد تطّورت من نظام الكتابة الآراميّة والتي مثلتها حضارة عرب الأنباط الممتدة من البتراء في

الشّمال إلى المدائن في الجنوب وهذا ما دلّت عليه النقوش العربيّة الثلاثة (النمارة زبد، وحران) [21].

ثم إنّ العرب بعد كتابتهم بالخطّ المسند استعملوا خطّا عربيا شماليا متأثرا بالخطّ النبطي وذلك بين الحجاز والشّام، وقد تركوا - في القرون الخمسة الأولى للميلاد- نصوصا وصلنا بعضها من مواطن شتى، ثم طغى على هذا الخطّ خطا آخر وصل إلى الشّام والحجاز عن طريق الأنبار، فالحيرة وفق المصادر العربيّة الإسلاميّة [22] وهذا الخطّ كان متأثرا بالخطّوط السّريانيّة والآراميّة، والذّي عُرف فيما بعد بالخطّ الكوفي [23]، وصاحَبه فيما بعد خط النسخ [24]، وهما الخطّان اللذان نشأت على إثرهما خطوط الكتابة العربيّة الإسلاميّة الرّسميّة المعروفة فيما بعد وكذا فنون الزخرفة والإبداع.

مراحل الكتابة العربيّة. [25]

1 - **النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد:** تأثّر فيه الكنعانيون في سيناء بالكتابة المصريّة، فراحوا يبدعون كتابة شبه أبجديّة، تطوّرت فيما بعد إلى أبجديّة جُبَيل، وبعض حروفها إلى حد ما كحروف خط المسند العربي الجنوبي.

2- **النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد:** أبدع الكنعانيون في القرنين الرّابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد في "أوغاريت" أبجديّة من 29 حرفا، تتسلسل وفق تسلسل المسند وفيها حرف الضّاد كالعربيّة، كما أوجد الكنعانيون في جُبيل في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد أبجديّة من 22 حرفا.

3- **النصف الأوّل من الألف الأولى قبل الميلاد:** وفيه استخدمت أبجديّة جُبيل لكتابة الآراميّة في حدود القرن التاسع قبل الميلاد (9 ق.م)، وهنا بلغ الخطّ المسند أوجّ جماله وإتقانه.

4- **النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد:** تطورت الكتابة الآراميّة إلى الخطّ الآرامي المربع، الذّي استخدم بالتدريج في الكتابات النبطيّة والتدمُريّة وكتابات مدينة الحضر، والسّريانيّة الغربيّة والمندعيّة.

5- **أواخر الألف الأولى قبل الميلاد والنصف الأولى من القرن الأول الميلادي:** انتشرت فيه الخطّوط المشتقة من المسند تدريجيا من اليمن للحجاز إلى بلاد الشّام وتضم فيها خطوطا ثموديّة وصفائيّة ولحيانيّة، وفيه نشأت الكتابة العربيّة الشّماليّة من السّريانيّة، ونشأ عنها الخطّ الكوفي، ثم خط النسخ المتأثر بالخطّ النبطي لتتطور فيما بعد مع القرن السّادس الميلادي.

وإلى هنا نكون قد حلّقنا في جو الكتابة العربيّة، تعريفا ونشأة وتطورا لنمر إلى خصائص هذه الكتابة قبل الرّسم العثماني، وهو ما يعنينا لفهم جماليات الرّسم العثماني فيما بعد.

ثالثا: مميّزات الكتابة العربيّة قبل الإسلام:

1- **الكتابات العربيّة واستعمال الحروف والحركات:** اختلفت خصائص الكتابة العربيّة قبل الإسلام باختلاف أنواعها واستعمالها للحروف والحركات فالكتابة الفينيقيّة كانت لها خصائص، والآراميّة أيضا كان لها مميّزات عن غيرها وكذا النبطيّة القديمة، وهذه الأنواع جعلت خصائص الكتابة العربيّة تتنوع، ولمعرفة ذلك رأيت من الضّروري دراسة خصائص الكتابات العربيّة سالفة الذّكر مع تبيّين ما أضافته كل كتابة من خصائص عن سابقتها.

لقد كان نظام الكتابة الفينيقيّة يتكون من اثنين وعشرين رمزا تكتب منفصلة وكانت هذه الرّموز تشير إلى الأصوات الصّامتة [26] فحسب، دون الإشارة إلى أي صوت حركي قصير أو طويل، كما استخدمت الكتابة الفينيقيّة لتمثيل اللغة الآراميّة، وبمرور الزمن ظهرت الحاجة إلى تمثيل الحركات، وتمكّن نسّاخ الآراميّة في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد من استخدام رمزي "الواو" و"الياء" الصّامتتين

لتمثيل الضّمة الطويلة والكسرة الطويلة على التوالي، ثم تطورت الكتابة الآراميّة خلال عدّة قرون دون أنْ تخطو خطوة في سبيل الحركات الأخرى [27].

وقد ضرب الأستاذ **غانم قدوري الحمد** في كتابه رسم المصحف أمثلة على استخدام النبط في الكتابة الآراميّة نظام الصّوامت مع الإشارة إلى الحركات وذلك في قوله: " وعندما استخدم النبط الكتابة الآراميّة، ورّثوا ذلك النظام الصّامتي مع الإشارة إلى الحركتين الطويلتين الضّمة والكسرة، بواسطة رمزي "الواو" و "الياء" الصّامتين والنصوص النبطيّة من أقدمها إلى أحدثها وهو نقش النمارة، تشير إلى هذه الظاهرة ففي نقش مؤرّخ في سنة (9 ق.م) وردت الكلمات الآتيّة:
"أبو" هي (أبوها)، "بيرح" (بمعنى شهر)، "ألول" (أيلول)، "مقيموا" (مقيم)، وفي نقش مؤرخ سنة(76م) وردت، "يتقبرون سيروان" (سيروان: اسم شهر)، وكلمة "أربعين" في نقش مؤرخ سنة 150م، ووردت كلمة "يعلى" في نقش مؤرخ في سنة(210م) و"منوتو"، "بيرح"، "تموز" في نقش مؤرخ بسنة (267م)، و "جذيمت" ،"تنوخ" في نقش مؤرخ سنة (270م)، وهو نقش أم الجمال الأول، ونجد في نقش النمارة (328م) الكلمات التاليّة: "ملوكهم"، "مدينة"، "بنيّة"، "الشّعوب"، "روم" وهذه الكلمات كلها تشير إلى استخدام رمزي "الواو" و "الياء" الصّامتتين للدلالة على الضّمة والكسرة الطويلتين. إنْ صحّت قراءة تلك الكلمات على الوجه المتمثل به" [28].

ومما يلاحظ على هذه الكلمات المثبتة في النقوش والتي ذكرها الدّكتور "غانم قدوري الحمد" أنّ فيها ظواهر متعددة- بعيدا عن ما أشار إليه الدّكتور- وهي ظاهرة الحذف كما في: ألول والتي تدل معنى "أيلول" وكذا ظاهرة الزيادة كما في كلمة "مقيمو" والتي تدل معنىً على " مقيم" وغيرها من الظواهر المُلفتة للانتباه والتي سنجدها من مزايا الرّسم العثماني، وذلك عند دراستنا لظواهر رسم المصحف، مما يجعلنا نقف عندها حينا من الزمن، لنسأل أنفسنا عن علاقة رسم المصحف بهذه الظواهر الكتابيّة القديمة جدا، والتي لو لم تُثبتها النقوش العربيّة

المكتشفة في العصر الحديث لأكل عليه الدّهر وشرب، ولما عرفها منا إنسان وهذا ما يدعونا إلى القول بإعجاز الرّسم العثماني وأنّ الله حفظ به اللغة العربيّة من الزوال.

ومن خصائص الكتابة العربيّة من خلال دراسة الكتابة النبطيّة الآراميّة نجد استعمالها للواو "والياء " الصّامتين للدلالة على الضّمة والكسرة الطويلة كما هو العهد عندنا في الخطّ العربي المعروف، غير أنّ اللاّفت للانتباه هو غياب الألف في الكتابة الآراميّة للدلالة على الفتحة الطويلة، كما بين ذلك الأستاذ جواد علي [29] والذّي بيّن أنّ غياب الألف في الكتابة لم يكن كليّة، وإنّما كان في الوسط وذلك لأنّ هذه الكتابة قد استخدمت رمز الألف أوّل أحرف الأبجديّة للدلالة على الفتحة الطويلة في آخر الكلمات دون وسطها.

وقد أشارت بعض الكلمات النبطيّة إلى استعمال الألف في آخر الكلمة وعدم استعمالها في الوسط ومن ذلك كلمة: بنه (بناه)، حرثت (حارثة)، ملكي (مالك)، سلم (سلام).وفي نقش النّمارة نجد: التج (التاج)، نزرو، نجرن (نجران) فرسوا (فارس).

وفي نقش حران نجد: شرحيل (شراحيل)، ظلموا (ظالم)، بعم (بعام).

وفي نقش القاهرة نجد: الرّحمن(الرّحمان)، هذا (هاذا)، اللهم (اللاهم) الكتب (الكتاب) وغيرها من الكلمات التي أثبتها بعض الدّارسين [30].

ومما رأيناه يتجلّى لنا كيف استطاعت الكتابة النبطيّة، تطوير الكتابة الآراميّة ذات الرّموز (الحروف) الأثني والعشرين للتعبير عن اللغة العربيّة ذات الرّموز الثمانيّة والعشرين، وفي ذلك يقول الدّكتور جواد علي "ونجد العربيّة ذات حروف يزيد عددها على حروف اللغات السّاميّة الأخرى، ولعل اللغات الأخرى كانت تملك حروفا أخرى ثم قلت استعمالاتها، فزالت من أبجديتها، ولم تبق لها حاجة بها " [31].

ثم إنّ من خصائص الكتابة العربيّة القديمة، أنّها تكتب الصّوت المكرر [32] الذّي لا يفصل بين الأول والثاني منهما حركة- وهو ما يسميه علماء العربيّة بالمدغم -

برمز واحد، وهو ما وُجد في الكتابة النبطيّة [33] والذّي يعرف عندنا بالإدغام المتماثل في الأداء الصّوتي للقرآن الكريم.

ومن خصائص الكتابة العربيّة النبطيّة أيضا، إلحاق الواو بأسماء الأعلام مثل لفظه: ظلمو وهي (ظالم)، ولفظه: مقيمو وهي (مقيم) ولفظه نبطو وهي (نبط)، وهو ما يبيّن لنا سر زيادة " الواو" في نهايّة اسم " عمرو" في الكتابة العربيّة والتي ذهب علماء العربيّة فيها مذهبا بعيدا عن الإحساس بالبعد التاريخي للكتابة أو اللغة استنادا على ما جاء في نقش النمارة في الأسماء الآتيّة (عمرو، نزرو مذحجو، شمرو، معدو، فرسو) للإشارة إلى (عمر، نزر، مذحج، شمر معد، فرس) [34] كما نجد في نقش القاهرة كلمت (سنّت) قد كتبت بالتاء المبسوطة، خلافا للمعهود عليه اليوم من قواعد الرّسم الإملائي.

رابعا: أنواع الخطّ العربي: يُعدّ الخطّ العربي أفضل شيء يُعبَر به عن الواقع الصّوتي للعربيّة، كما أنّه محاولة لتدوين هذا الواقع الصّوتي [35]، ولذلك اعتنى به العرب درسا وتدريسا، وذلك لأنّ التعبير كما يكون باللسان يتم أيضا بالكتابة، واللسان أثره في الغالب مقصور على مجلس خاص، وزمن محدود، أما الكتابة فهي تنتقل عبر الأجيال وعبر المماليك والشّعوب، ولولا ما سجّله قدماء المصريين والإغريق والرّومان، ما عرفنا شيئا عن مدينتهم العريقة، ولا أدركنا شيئا يُذكر من معارفهم وعلومهم [36].

ومن أحسن ما قرأت في هذا المعنى أبيات شعريّة دأَب أصحاب التأليف في الزوايا الجزائريّة كتابتها في آخر تآليفهم:

يا ناظرا في خطّنا فادع لنا لعلّ من به الرّجا يغفر لنا
يامن نظرت في الخطّ شيئا فاعدله لأنّني كتبته مستعجله
يذوب لحمك في التراب ويبقى هذا الخطّ في الكتاب

وقد عُدّت الكتابة أيضا قيداً للعلوم، تحفظها من النسيان وتتركها للأجيال وفي ذلك قال الشّاعر:

يـــــا طالبـــا علمـــا وفضـــلا ايـــت حمّـــاد بـــن زيـــد

خـــــذ منـــه علمـــا ومجـــدا ثـــم قيّـــده بقيـــد

ولذلك نجد العلامة "ابن خلدون" رحمه الله تعالى في مقدمته، عده من عداد الصّنائع الحضريّة حيث يقول: " إنّ الخطّ من الصّنائع الحضريّة، وأنّه من جملة الصّنائع المدنيّة المعاشيّة، وأنّ جودة الخطّ إنّما تكون على قدر الاجتماع والعمران..." [37]

وقد عرّف العلماء الخطّ بأنّه تصوير اللفظ بحروف هجائه، بحيث يطابق المكتوب المنطوق في ذوات الحروف وعددها، مراعيا في ذلك الوقف والابتداء [38].

فهذا التعريف يبيّن لنا أنّ الخطّ هو محاولة لنقل الظاهرة الصّوتيّة السّمعيّة إلى ظاهرة كتابيّة مرئيّة، وهذا ما جسدته لنا أنواع الخطّوط الثلاثة (الإملائي – العروضي – العثماني)

1- **الخطّ الإملائي:** ويسمى أيضا بالرّسم الاصطلاحي لاصطلاح العلماء عليه وهو كما عرفه الأستاذ مصطفى عناني [39]: " الرّسم الذّي وضع علماء البصرة والكوفة قواعده، مستمدين ذلك من المصحف العثماني، ومن علم الصّرف والنحو".

وعليه فإنّ هذا النوع من الخطّ الوضعي وليد التطور الحضاري، كما أنّ له قواعد وأسس كثيرة كان من بينها ما ذكره الدّكتور "عبد الحي حسين الفرماوي" حيث قال: " وأصول هذا الخطّ خمسة:

أولها: تعيين نفس حروف الهجاء دون أعراضها.

ثانيها: عدم النقصان منها.

ثالثها: عدم الزيادة عليها.

رابعها: فصل اللفظ عما قبله، مع مراعاة الملفوظ في الابتداء.

خامسها: فصل اللفظ عما بعده، مع مراعاة الملفوظ في الوقف" [40].

فعلى هذا الكلام فإنّ أصول هذا الخطّ عربيّة، تعتمد على قواعد الخطّ العربي غير أنّ العلماء أضافوا إليها تحسينات وجماليات، فرضها عليهم التطور الحضاري في العصر الذّهبي.

وأما عن موضوع هذا الخطّ، ومجال دراسته فقد ذكرها الأستاذ "مصطفى عناني" بقوله: " وموضوعها أربعة:

الأول: الحروف التي تبدل: كالهمزة، والنونات الثلاث، والألف اللينة، وتاء التأنيث وهاءه".

الثاني: الحروف التي تزاد كواو " أولئك ".

الثالث: الحروف التي تحذف كألف " لكن ".

الرّابع: الكلمات التي توصل، والتي تفصل مثل كلمة "كلمّا" في قوله تعالى: " كلما أضاء لهم مشوا فيه" [41] (البقرة: 19).

وأما قواعده وأسُسه التي ينبني عليها فهي مضطربة ومتغيّرة، وفق ما تستمده من تطور حضاري وحسن معرفي وجمال لغوي [42].

تنبيه: هذا الرّسم لا يُراعي الموافقة التامة بين المكتوب والمنطوق [43]، وهو الرّسم الإملائي المستعمل في وقتنا هذا.

2- **الخطّ العروضي:** وهو ما اصطلح عليه أهل العروض في تقطيع الشّعر واعتمادهم في ذلك على ما يقع في السّمع دون المعنى، إذ المعتمد عليه في صناعة العروض إنّما هو اللفظ، لأنّهم يريدون به عدد الحروف التي يقوم بها الوزن متحركا وساكنا، فيكتبون التنوين نونا ساكنة، ولا يراعون حذفها في الوقف ويكتبون الحرف المدغم بحرفين، ويحذفون اللام مما يدغم فيه في الحرف الذّي

بعده كالرّحمن والذّاهب، والضّارب ويعتمدون في الحرف على أجزاء التفعيل [44].

وعليه فإنّ الخطّ العروضي هو الذّي يُراعى فيه المطابقة بين المنطوق والمكتوب فتكتب كما تقرأ فإنّ قلت (مسلما) بالتنوين، فإنّك تكتبها بنون هكذا (مسلمن)، وحتى يتبين لنا المعنى جليا نضرب مثال على ذلك:

قال الشّاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفي على الناس تعلم

هذا البيت لطرفة بن العبد، إذا أردنا أنْ نكتبه كتابة عروضيّة فإنّنا سنراعي فيه جانب النطق فتكتبه هكذا.

ومهما تكنعند امرئن منخليقتن وإنخالها تخفا علناس تعلمي

3- **الخطّ العثماني:** أو ما سُمي بخط رسم المصاحف، وهو الخطّ الذّي كُتبت به المصاحف في زمن سيدنا "عثمان بن عفان" وله مزايا وخصائص تميّزه عن غيره من الخطّوط، وقد عرفه الأستاذ "محمد محيسن" بقوله: " هو ما كَتبت به الصّحابة رضوان الله عليهم المصاحف" [45] وقال عنه صاحب كتاب دليل الحيران [46]: " هو علم جليل تعرف به مخالفات خط المصاحف العثمانيّة لأصول الرّسم الإملائي، وقواعده المقررة فيه".

وأما عن موضوعه فيقول عنه السّيد إبراهيم المارغيني: " هي حروف المصاحف العثمانيّة من حيث، الحذف والزيادة والإبدال والفصل والوصل ونحو ذلك [47].

فهذا الخطّ لا يراعي الموافقة التامة بين المنطوق والمكتوب كما هو حال الخطّ العروضي، كما أنّه لا يخضع لقواعد النحو والصّرف كليّة كما هو حال الخطّ الإملائي. وذلك لأنّ رسمه يتحمل أكثر من صورة منطوقة، ليوافق بذلك جميع القراءات القرآنيّة

وعلى هذا الأساس فإنّ هذا الخطّ لا يُقاس عليه، قال صاحب كتاب فصل الخطّاب " خطّان لا يُقاس عليهما: خط المصاحف، وخط تقطيع العروض" [48].

وقد قسّم الإمام الزركشي رحمه الله تعالى، الخطّ إلى ثلاثة أقسام هي [49]:

1- خط يتبع به الاقتداء السّلفي، وهو رسم المصحف.

2- خط جرى على ما أثبته اللفظ، وإسقاط ما عداه، وهو خط العروضيين.

3- خط جرى على العادة المعروفة، وهو الذّي يتكلم عليه النحوي.

الخاتمة: وختاماً يمكننا القول بأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا أميّين بما تحمله الكلمة من معان، وإنّ وصفهم بالأميّة في مواضع كثيرة من القرآن إنّما هو وصف على التغليب أي أنّ الغالب عليهم هو الأميّة، وذلك لأنّنا وجدنا عرباً أقحاحا استعملوا الخطّوط والكتابة في معاملاتهم وشؤون حياتهم هذا من جهة ومن جهة أخرى أنّ الأميّة بلفظها الشّمولي اللغوي لا تعني فقط ترك الكتابة والقراءة، بل لها معان أخرى ومنها ما ذكره الفراء في تعريفه للأميّين بقوله: "الأميّون هم العرب الذّين لم يكن لهم كتاب" يعني بذلك كتاب سماوي كـ: التوراة و الإنجيل، وهذا ما يوضحه وصف الله عز و جل لليهود و النصارى في القرآن بأنهم أهل كتاب، وأما العرب – على هذا الأساس – فإنّ وصفهم بالأميّة إنما هو على معنى الوثنيّة أو على سبيل التغليب وهو ما بيناه في بحثنا هذا.

إنّ بدايّة الكتابة والخطّ العربي كان بنظام العدّ والحساب، حيث أنّ الإنسان كان يدل على العدد عن طريق السّرد المتسلسل، بمعنى أنّ الدّلالة على العدد ثمانيّة مثلا تكون برسم رموز تمثل الشّيء المعدود، ثم تطوّر حتى أصبح يعتمد على رموز ذات معنى لا رموزا متسلسلة، وهذا ما يوضّح العلاقة بين الرّمز ووحدات اللغة.

لقد بدأ الخطّ العربي مقلداً للخطوط التي كانت موجودة قبه كالفينيقي والارامي، ثم سرعان ما تطور وانفرد عن غيره من حيث البهاء والجودة والخصائص ليتنوع ويشمل الكوفي والمسند والمغربي...

الإحالات و التهميش:

[1] أحمد شوحان – رحلة الخطّ العربي من المسند... إلى الحديث – دراسة – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق – د.ط- 2001 –ص: 19.

[2] جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام ج: 08 – ص: 153- 162 بتصرف.

[3] الدّاني (عثمان بن سعيد)- المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار– مكتب الدّراسات الإسلاميّة – دمشق – د.ط- 1940 –ص: 09.

[4] ابن رستة (أحمد بن عمر)- الأعلاق النفيسة – لندن- د.ط- 1891 ،مج: 07 –ص: 192.

[5] البلاذري – فتوح البلدان – ص: 476.

[6] السّيوطي - المزهر في علوم اللغة وأنواعها – دار إحياء الكتب العربيّة – القاهرة – ط: 04 – 1958- ج: 02 –ص: 348.

[7] جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام- ج: 01 –ص: 188.

[8] ابن رستة – الأعلاق النفيسة – مج: 07- ص: 192.

[9] غانم قدوري الحمد - رسم المصحف دراسة لغويّة تاريخيّة – ص: 52- 53.

[10] صلاح الدّين المنجد – دراسات في تاريخ الخطّ العربي– دار الكتاب الجديد – بيروت- ط: 1 – 1972 – ص: 12،13

[11] السّيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها –ج: 1- ص: 212.

[12] وهم: مرامر بن مرة ،وأسلم بن سدرة ،وعامر بن جدرة، وقد مر ذكرهم في المطلب الأول من هذه الدّراسة.

[13] نقش النمارة أو حجر النمارة أو كما يعرف بحجر امرؤ القيس هو ما يُعتقد أنه مرحلة سابقة للعربيّة الفصحى، وكان قد كُتب بالخطّ النبطي المتأخر، وقد عثرت عليه البعثة الفرنسيّة في مطلع القرن العشرين في قريّة النمارة شرقي جبل العرب بسوريّة، ويعتقد غالبيّة المختصّين أن نقش النمارة هو شاهد قبر امرؤ القيس بن عمرو الأول أحد ملوك المناذرة في الحيرة قبل الإسلام- ينظر: سعد الدّين أبو الجب – جذور الكتابة العربيّة الحديثة من المسند إلى الجزم- المجلة الفصليّة في نيويورك – صوت داهش- العدد: 50- 51- 2009.

[14] نقش زبد يضم نصوص بثلاث أبجديات، اليونانيّة والسّريانيّة والعربيّة، تم اكتشافه في شمال سوريّة ويرجع تاريخه إلى عام 512 ميلاد – ينظر: نفس المرجع السّابق.

[15] نقش حران اكتشف في حران جنوب دمشق عاصمة سوريا ويرجع تاريخه إلى عام 568 ميلادي ينظر: نفس المرجع السّابق.

[16] غانم قدوري الحمد – رسم المصحف دراسة لغويّة تاريخيّة – ص: 56- 57.

[17] محمد علي الخيري – نظام كتابة اللغات – مركز الدّراسات والبحوث – الرّياض – 1427 هـ - ص: 07.

[18] تركي عطيّة الجبوري – الكتابات والخطّوط القديمة – مطبعة بغداد – د.ط- 1404 هـ - ص: 75.

[19] الهيروغليفيّة هي كلمة مشتقة من الكلمتين اليونانيتين " هيروس " HIEROS " وجلوفوس " GLOPHOS" وتعنيان الكتابة المقدسة إشارة إلى أنها كانت تكتب على الأماكن المقدسة كالمعابد والمقابر، وتعني أيضا الكتابة المنقوشة لأنها كانت تنفد بأسلوب النقش البارز واستعملت عند قدماء المصريين.

[20] محمد علي الخيري، نظام كتابة اللغة - ص: 08.

[21] صفوان التل – تطور الحروف العربيّة على آثار القرن الهجري الأول الإسلامي – مطابع دار الشّعب الأردن – د .ط- 1980 م- ص: 08.

[22] البلاذري – فتوح البلدان- ص: 476.

[23] الخطّ الكوفي هو من أقدم الخطّوط وهو مشتق من الخطّ النبطي الذّي كان متداولا في شمال الجزيرة العربيّة وجبال حوران، ولأن الكوفة قد تبنته ورعته في البدء سمي بالخطّ الكوفي – ينظر أحمد شوحان – رحلة الخطّ العربي من المسند... إلى الحديث – دراسة- ص: 50.

[24] خط النسخ من أقرب الخطّوط إلى خط الثلث غير أنه أكثر قاعديّة وأقل صعوبة وهو خط لنسخ القرآن الكريم وأصبح فيما بعد خط أحرف الطباعة، ينظر أحمد شوحان – رحلة الخطّ العربي من المسند... إلى الحديث – ص: 53.

[25] نقلا عن: عدنان البُنّي – العرب والكتابة – التراث العربي – د.ط – د.ت – ص: 110.

[26] الأصوات الصّامتة (CONSONANT) هي الأصوات التي لا تحدث في تكوينها أي اندفاع للهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم ،ويكون ارتباط المعنى الرّئيسي للكلمة مرتبطا بها – ينظر: عبد الصّبور شاهين – القراءات القرآنيّة في ضوء علم اللغة الحديث – دار القلم – د.ط- سنة 1966 – ص: 43.

[27] غانم قدوري الحمد – رسم المصحف – دراسة لغويّة تاريخيّة – ص: 69- 70.

[28] غانم قدوري الحمد – رسم المصحف دراسة لغويّة تاريخيّة – ص: 70- 71.

[29] جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام – ج 07 – ص: 291.

[30] غانم قدوري الحمد – رسم المصحف دراسة لغويّة تاريخيّة – ص: 71.

[31] جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام – ج 07 – ص: 33 – 34.

[32] إشارة إلى تماثل الحروف ك: الميم مع الميم والسّين مع السّين وغيرها.

[33] غانم قدوري الحمد – رسم المصحف دراسة لغويّة تاريخيّة – ص74.

[34] غانم قدوري الحمد – رسم المصحف دراسة لغويّة تاريخيّة – ص: 74.

[35] محمود فهمي حجازي – اللغة العربيّة عبر القرون – المكتبة الثقافيّة – العدد: 197- ص: 09.

[36] عبد الحي حسين الفرماوي – رسم المصحف ونقطه – ص: 163.

[37] ابن خلدون – كتاب العبر – ج1 –ص: 755.

[38] مصطفى عناني – نتيجة الإملاء وقواعد الترقيم – نشر محمود توفيق – الطبعة الخامسة- سنة 1937- ص: 04.

[39] مصطفى عناني – نتيجة الإملاء وقواعد الترقيم - ص: 05.

[40] عبد الحي حسين الفرماوي – رسم المصحف ونقطه – ص: 164.

[41] مصطفى عناني – نتيجة الإملاء وقواعد الترقيم – ص: 06.

[42] لبيب سعيد – الجمع الصّوتي الأول للقرآن الكريم – دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة – د.ط – سنة: 1967 م – ص: 384.

[43] مصطفى عناني – نتيجة الإملاء وقواعد الترقيم – ص: 25.

[44] عبد الحي حسين الفرماوي – رسم المصحف ونقطه –ص: 166.

[45] محمد محيسن – الفتح الرّباني في علاقة القراءات بالرّسم العثماني – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة – السّعوديّة – د.ط- سنة: 1415هـ - ص: 20.

[46] السّيد إبراهيم المارغيني – دليل الحيران – ص: 32/31.

[47] نفس المرجع السّابق – ص: 31.

[48] أحمد سيد الكومي ، ومحمد يوسف القاسم – فصل الخطّاب في سلامة القرآن الكريم – مطبعة المدني بالعباسيّة – د.ط –سنة: 1972م – ص: 16.

[49] الزركشي (بدر الدّين) - البرهان في علوم القرآن – تح: محمد أبو الفضل إبراهيم – طبع ونشر عيسى الحلبي – د.ط- سنة 1957- ج: 1 – ص: 252.